المواعظ هو الّذي يرجع إلى الله تعالى بالتّوبة النّصوح والعمل الصّالح. فاعبدوا الله تعالى وحده لاشريك له أيّها الموحّدون ولو كره الكافرون وأبغض المشركون.

إنّ الله تعالى هو الرّفيع الدّرجات الّذي له الأسماء الحُسنى والصّفات العُلَى، ذو العرش العظيم، يترّل الوحي من أمره جلّ وعلا على المصطفى من عباده لينذر يوم القيامة الّذي يلتقي فيه الخلائق لفصل الحساب، المؤمنون والكافرون العابدون والمعبودون، الطائعون والعاصون، الظّالمون والمظلومون. يوم يكونون ظاهرين في الفضاء، مكشوفين في العراء. وكما لا يخفى على الله تعالى من شخوصهم شيء، لايخفى عليه جلّ وعلا من أعمالهم وأقوالهم ونيّاتهم شيء. وبعد موت الخلائق بأمر ربّها ينادى الحقّ جلّ وعلا مرّاتٍ ثلاثاً : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ وليس هنالك من مجيب سوى الحق جلّ وعلا الّذي يقول : ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ .

إنّ الله تعالى الواحد الّذي لا إله سواه، القهّار الّذي غلب كلّ كنودٍ وعلاه، يجزي كلّ نفسٍ ما كسبت من خير أو شرّ، ولا تظْلم نفسٌ شيئاً بحذف حسنةٍ أو إضافة سيّئة. إنّ الله تعالى سريع الحساب، فحساب الجميع كحساب نفسٍ واحدة. سبحانه ما أعظم شأنه.

وأنذر أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم قومك وخوّفهم يوم الآزفة، يوم القيامة، الوشيك الوقوع، وقيام السّاعة القريب الحدوث. أنذرهم يوم الآزفة إذِ القلوب من الخوف تنخلع من مواضعها تريد الخروج فتمنعها الحناجر، ويُسَدُّ المجرى، وتمتلئ النفس همّاً وغمّا، ولا تستطيع القلوب أن تعود إلى مواضعها فتكون الحياة مستقرّة هنيّة. ولا تستطيع القلوب مغادرة الأجساد فتكون الميتة السّويّة. إن المشركين ليس لهم الشفيق القريب، ولا الشفيع المطاع، كي تعود القلوب إلى مواضعها، ويكون الاطمئنان صفةً لها.

وقد رشّح ذكر القلوب والحناجر بمناسبة الآخرة لذكر العيون والصدور في الأولى. إنّ الله تعـــالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصّدور. وكما كانت أعين الكافرين خائنة كانت صدورهم مملوءة كفراً وغشاً وخداعاً فاستحقّوا العذاب الأليم. إن الله تعالى هو الّـــذي يقضـــي بالحقّ يوم القيامة ويحكم بالعدل والآلهة المزعومة الّتي يعبدها المشركون عاجـــزةٌ لا تقضي بشيءٍ والله تعالى هو السّميع لكلّ شيءٍ، البصير بكل شيء سبحانه، فوحّدوه أيّها النّاس ولا تشركوا به شيئاً.

وهـــؤلاء قومـــك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم أَغفَلوا و لم يسيروا في الأرض فينـــظروا بأبصارهم وبصائرهم كيف كان عاقبة الّذين كانوا من قبلهم من المكذبين كعاد وثمود وأشباههما لقد كانوا أشدّ من كفّار قريش قوّة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله تعالى بذنوبهم وما كان لهم من يقيهم من عذاب الله تعالى. ذلك الهلاك بسبب أنّهم كانت تأتيهم رسل الله تعالى إليهم بالآيات البيّنات الدّالاّت على وحدانيّة الله تعالى فكفروا وكذبوا رسل الله تعالى إليهم فأخذهم الله تعالى بالعذاب الشّديد والهلاك الأكيد. إنّه جلّ وعلا قويٌّ يفعل ما يريد شديد العقاب، وينتقم من كلّ متكبّرٍ لا يؤمن بيوم الحساب.

(٣)

" إنقاذ الله تعالى موسى عليه السّلام ومؤمن آل فرعون من فرعون وآله الّذين حلّ بهم سوء العذاب في الأولى والآخرة "

الآيات (٢٣ - ٤٦) .

وبسبب أوجه الشّبه المتعدّدة بين ملابسات كلٍّ من الدّعوة الموسويّة والمحمّديّة يتمّ التّحوّل إلى الحديث عن بعض ملابسات الدّعوة الموسويّة، جرياً على عادة القرآن الكريم

في العديـــد من السّور، بقصد تسلية المصطفى ﷺ والمؤمنين قبل الهجرة. لقد أرسل الله تعـــالى موسى عليه السلام بآياته الواضحات وبرهانه المبين. إلى فرعون مصر الطّاغي، ووزيـــره هامان الباغي، وهما قبطّيان ، وقارون الّذي كان إسرائيلياً من قوم موسى عليه السّـــلام فبغى بسبب ثرائه الفاحش وكفرانه لنعمة الله تعالى عليه. لقد قالوا عن موسى عليه السّلام رسول ربّ العالمين إنّه ساحرٌ كذّاب. فلمّا جاء موسى عليه السّلام فرعون وملأه بالحقّ من عند الله تعالى متمثّلاً في الآيات التّسع البيّنات دليلاً على أنه رسول ربّ العـــالمين قالوا اقتلوا أبناء الّذين آمنوا معه من بني إسرائيل بقصد إهانتهم وتقليل عددهم إن لم يتسنّ استئصال شأفتهم، كما أمروا باستحياء البنات لتسخيرهنّ في الخدمة حينما يبلغن مبلغ النّساء. وما كيد الكافرين إلاّ في ضلال، وما مكرهم إلاّ في خسران مبين.

وجـــرياً على عادة الطّغاة في كلّ زمانٍ ومكان حينما يهزمهم الحق النّاصع يستغل فـــرعون قوته ويسخرها لتحقيق غرضه الخسيس وهدفه اللّئيم يقول لملئه : ذروني أقتل موسى ولا تحولوا بيني وبين تحقيق هذا الهدف، وليدع موسى ربّه الّذي يزعم أنّه أرسله كي يمنعه منّي وينصره. وقد منع الحقّ جلّ وعلا موسى عليه السلام من فرعون الطّاغية، ونصره نصراً مؤزّراً، وأهلك فرعون الطّاغية وجنده. والعجيب في الأمر أنّ فرعون يصير مذكّـــراً ويتحوّل واعظاً فيقول لقومه : إني أخاف أن يبدّل موسى دينكم بتحوّلكم من عبادتكم لي إلى توحيد الله، أو أن يُظْهِرَ في الأرض الفساد بنشر عقيدة التّوحيد !

ويفـــرّ موســـى عليه السّلام إلى أحكم الحاكمين ويعوذ بالله تعالى ويلجأ إلى ربّ العالمين من كلّ متكبّر لا يؤمن بيوم القيامة، ولا يخاف يوم الحساب.

وشـــاء الحـــقّ جلّ وعلا أن يسخّر لدعوة التّوحيد رجلاً مؤمناً يكتم إيمانه من آل فرعون، آمن بموسى عليه السّلام سرّاً، وكان الخطيب المبين، الّذي خاطب فرعون وملأه وجهـــاً لوجه، ووعظهم، وقال بفضل الله تعالى كلّ ما كان يريد أن يقوله موسى عليه

السّـــلام. لقد كان في لسان موسى عليه السّلام بنصّ القرآن الكريم عقدةٌ، وها هو ذا الرّجل المؤمن من آل فرعون، يسخّره الله تعالى الفعّال لما يريد كي يقول كلّ الّذي يريد أن يقوله موسى عليه السّلام ، وينجّيه الله تعالى من فرعون وملئه، كما نجّى موسى عليه السـلام من فرعون وملئه. ونحن حينما نمعن النّظر في القول المسهب الّذي جرى على لسـان هذا الرّجل المؤمن نتبيّن أنّه من أطول الأقوال الّتي جرت على ألسنة الشّخصيّات في القـرآن الكـريم، ولهذا كانت سورة غافر تسمّى كذلك سورة المؤمن، والمراد هذا الرّجل المؤمن من آل فرعون الّذي كان يكتم إيمانه. ونحن حينما نتأمل قصّة هذا الرجل المؤمن في سورة غافر نجد دليلاً من أوضح الأدلة وأكبرها على أنّ القصص القرآني الّذي يشـكلّ زهـاء ثلث القرآن الكريم يخدم الثّلث الأوّل وهو توحيد الله تعالى. أمّا الثّلث الأخير فهو الأحكام. والأحكام تخدم التّوحيد كذلك.

وهـذا الرّجل المؤمن من آل فرعون له الكثير من النّعوت، ويصحّ أن يكون رمزاً للدّعـاة مـن الصّالحين الّذين لهم في رسل الله تعالى أسوةٌ حسنة. إنّه رجلٌ عَرَفَ الحقّ فاتّـبعه، وأعرض عن متاع الدّنيا الرّخيص ، وآثر ما عند الله تعالى، وجهر بكلمة الحقّ أمام أحد المتكبّرين ورموز الطّغاة في كلّ عصرٍ ومصر، فرعون موسى عليه السلام. إنّ هـذا المؤمن يضحي بحياته رخيصةً في سبيل الله تعالى فيقول ما يعتقد، ويدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل بالطّريقة الّتي هي أحسن.

وهو قبل ذلك وبعده رجلٌ حصيفٌ يكتم إيمانه كما كتم أتباع محمدٍ ﷺ إيمانهم في اثناء الدّعـوة السّرّيّة، واستعان على قضاء حاجته بالكتمان، ووظّف كلّ ما منّ الله تعالى عليه من جـاه، وقرابةٍ فهو ابن عمّ فرعون فيما يقال، ومواهب وفي مقدمتها العقل الحصيف، واللّسان الرّطـب، والكلام العذب، من أجل الدّعوة إلى الله تعالى. وقد أكرمه الله تعالى فوقاه سيّئات مكر فرعون وملئه ونجاه منهم وأخذ عزّ وجلّ فرعون وملأه أخذ عزيزٍ مقتدر.

إنّ هـــذا الرّجل المؤمن ينكر على قومه أن يقتلوا موسى لأنّه يقول ربّي الله، وقد جـــاءهم بالآيات البيّنات الدّالاّت على أنه رسول ربّ العالمين. إنّه إن كان كاذباً فعليه كذبـــه، وإن يك صادقاً في دعواه وقتلوه أو آذوه يصبهم بعض الّذي يعدهم من عذاب الدّنـــيا والآخرة. إنّ الله تعالى لا يهدي من هو مسرفٌ في كذبه بالشّرك والزّعم بأن لله تعالى ولداً وصاحبةً وشريكاً.

ويستمر الرّجل المؤمن يعظ قومه بمنطقه العذب ولسانه الرّطب مكرّراً ستّ مرّات النّداء : ﴿ يَقَوْمِ ﴾ بقصد استمالة قلوب قومه، وعدم إثارة حفيظتهم ضد موسى عليه السلام وضدّه. وهذه المرات الست في الآيات الكريمات ٢٩ و ٣٠ و ٣٢ و ٣٨ و ٣٩ و ٤١ ويكاد يكون القول : ﴿ يَقَوْمِ ﴾ قد تكرّر على لسان شخصيّةٍ واحدةٍ في سورة غافـــر هـــي شخصيّة المؤمن بأكثر من تكراره على لسان أيّ شخصيّةٍ أخرى من غير النّبيّين في أيّ سورةٍ أخرى من سور القرآن الكريم. ولقد تكرّر هذا النّداء في سورة هود عـــلى لســـان شعيبٍ عليه السلام خطيب الأنبياء وحْدَه ستّ مرّاتٍ كذلك، وذاك في الآيات الكريمات ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ .

يقول الرّجل المؤمن لقومه يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في أرض مصر على بني إسرائيل فمن يحمينا من عذاب الله تعالى إن جاءنا بسبب ذنوبنا؟ وقال فرعون ما أريكم إلاّ ما أرى من قتل موسى وما أهديكم إلاّ طريق الرّشاد. وكذب الطّاغية. وقال الّذي آمـــن يا قوم إنّي أخاف عليكم يوماً تعذّبون فيه مثل أيّام الأحزاب والأمم المجتمعة على الكفر وتكذيب الرّسل، وأخشى أن تجري في حقّكم سنّة الله تعالى في المكذّبين السّابقين من أمثال قوم نوحٍ وعادٍ وثمودٍ والّذين من بعدهم من المكذبين. والله تعالى لايريد ظلماً للعـــباد. ويـــا قوم إنّي أخاف عليكم يوم القيامة الّتي ينادي فيه بعض الناس بعضاً، يوم

تولّـــون مدبرين من موقف الحساب إلى نار جهنم، ليس لكم من الله تعالى من عاصم. ومن يضلله الله تعالى فلا هادي له.

ولقـــد جـــاءكم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام من قبْل موســـى علـــيه السّلام بالمعجزات الواضحات فما زلتم في شك ممّا جاءكم به حتّى إذا مات قلتم على سبيل التّمنّي لن يبعث الله تعالى من بعده رسولاً. والمراد أنّ الآباء هم الّذين كان لهم ذلك الموقف من يوسف عليه السلام وأنّ الأحفاد لهم الموقف ذاته من موسى عليه السلام لذا صحّ مخاطبة الأحفاد وكأنهم الأجداد لتشابه الموقفين ولرضا المتأخّرين عن سلوك السّـــابقين، بدلـــيل تشـــابه الموقفين. وكما أضلّ الله تعالى المشركين المرتابين سابقاً يضلّ المشركين المرتابين لاحقاً. إنّ الّذين يجادلون في آيات الله تعالى البيّنات بالباطل، بغير برهان أتاهم من الله تعالى، كبر مقتهم عند الله تعالى وعند الّذين آمنوا. وكما طبع الله تعالى على قلوب المتكبرّين السّابقين الجبّارين يطبع على قلوب اللاّحقين .

وتمادى فرعون في غيّه. وها هو ذا يأمر وزيره هامان بأن يبني له قصراً عالياً بالآجرّ لعلّـــه يـــبلغ بـــه طرق السّماوات فيطّلع إلى إله موسى. وإنّ الطّاغية ليظنّ موسى عليه السلام كاذباً في قوله : إن الله تعالى أرسله، وإنّ له إلهاً غير فرعون. كما زُيّن للكافرين سوء عملهم زُيّن لفرعون الطّاغية الّذي صُدَّ عن سبيل الرّشاد. وماكيد فرعون ومكره إلا في تباب وخسار.

ويواصل الرّجل المؤمن نصحه ويبلّغ رسالته . إنه يقول لقومه يا قوم اتّبعون أهدكم سبيل الرّشاد، فآمنوا بالله تعالى واتّبعوا موسى عليه السلام. يا قوم إنّما هذه الحياة الدّنيا متاعٌ زائلٌ وإنّ الآخرة لهي دار الاستقرار في الجنّة أو النّار. من عمل سيئةً فلا يُجـــزى إلا مثلها، ومن عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فأولئك يدخلون جنّات النّعيم الّتي يرزقون فيها بغير حساب.

وكـــأن القـــوم دعوه إلى الشّرك. وها هو ذا ينكر عليهم دعوتهم له. يا قوم مالي أدعوكـــم إلى النجاة من النّار ودخول الجنّة وأنتم تدعونني لأن أعمل عمل أهل النّار. تدعونـــني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علمٌ من وحي أو عقل، وأنا أدعوكم في المقـــابل إلى الله تعالى العزيز في ملكه الغفّار لمن تاب وأناب. لا شك أنّ الّذي تدعونني إلى عبادته ليس لـــه قدرةٌ على أن يجيب من دعاه في الأولى ولا في الآخرة، وأنّ مرجعنا إلى الله تعالى، وأنّ المسرفين بالشّرك هم أصحاب النّار.

وكـــأنّ القـــوم حذّروه إلههم المزعوم فحذرهم في المقابل وهدّدهم وقال لهم إنّهم ســـوف يذكـــرون ما يقول لهم بعد فوات الأوان. وقد فوّض المؤمن أمره إلى الله تعالى البصير بالعباد.

وقد أكرم الله تعالى المؤمن الّذي صدع بالحقّ فوقاه عزّ وجلّ سيّئات ما مكروا به في الحياة الدّنيا من قَتلٍ وعذابٍ، وحلّ بآل فرعون سوء العذاب في الدّنيا والآخرة. إنّهم في القـــبور يُعْرَضون على النّار غدوّاً وعشيّا، صباحاً ومساءً، ويوم القيامة يقال لملائكة العذاب أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب.

(٤)

" مصير المتكبّرين المعرضين عن آيات الله تعالى نار الجحيم، ومصير المؤمنين المتّقين جنّات النّعيم "

الآيات (٤٧ - ٨٥) .

وأنـــذر يا محمّد قومك يوم القيامة إذ القلوب لدى الحناجر وإذ يتخاصم أهل النّار فيقول التّابعون الضّعفاء للمتبوعين المستكبرين إنّا كنّا لكم في الحياة الدّنيا أتباعاً وأذناباً،

فهل أنتم حاملون عنا اليوم نصيباً من عذاب النّار؟ قال المستكبرون إنّا جميعاً في النار، إنّ الله تعالى قد حكم بين العباد، فأخذ كلّ فريقٍ من عذاب النّار ما يستحقّه ويكفيه، ولا يستطيع أن يحمل المزيد عليه. لجأ أهل النّار لخزنة جهنّم وبوّابيها وقالوا لهم ادعوا ربّكم أن يخفّف عنا من العذاب مقدار يوم من أيّام الدّنيا، فقد دعونا فلم يستجب الله تعالى لنا. قال خزنة جهنّم لهم على سبيل التّوبيخ والتّأنيب : أتركتم رسلكم وأعرضتم عنهم و لم تك تأتيكم بآيات الله تعالى البيّنات؟ قالوا : بلى أتتنا. قالوا : فادعوا أنتم ربّكم فإنّا لا نشفع للمشركين ففعلوا، وما دعاء الكافرين إلاّ في ذهابٍ أدراج الرّياح والعياذ بالله.

ويصرّ كفار مكّة على كفرهم وعنادهم، ويسلّى الحقّ جلّ وعلا حبيبه ﷺ . إنّ الله تعالى لينصر رسله والّذين آمنوا في الحياة الدّنيا ويوم يقوم الملائكة للشّهادة يوم القيامة بأنّ رسل الله تعالى قد بلّغوا الرّسالة وأدّوا الأمانة في ذلك اليوم لاينفع المشركين اعتذارهم، ومن نصيبهم الطّرد من رحمة الله تعالى، وسوء المصير في نار الجحيم. وكما نصر الحقّ جلّ وعلا موسى بن عمران على فرعون وملئه سوف ينصر محمّداً ﷺ على الكفر وأهله. لقد آتى الله تعالى موسى عليه السلام الهدى والنّور، وأورث بني إسرائيل التّوراة، هدىً من الضّلالة، وذكرى تتعظ بها قلوب أولى العقول الرّاجحة. وقد آتيناك يا محمد أشرف الكتب السّماوية وأورثنا أمّتك المصطفاة هذا الكتاب العزيز. فاصبر يا محمّد وأنت زعيم أولى العزم من الرّسل المعروفين في المقام الأوّل بالصّبر. إن وعد الله تعالى بنصرك ونصر المؤمنين حقّ، فأسأل الله تعالى أن يغفر لك ذنبك. ولمّا كان المصطفى ﷺ قد غفر الله تعالى له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، فالمقصود بطلب المغفرة أمته عليه الصلاة والسلام. والمطلوب منه عليه الصلاة والسلام ومن أمّته أن يذكروا الله تعالى ذكراً كثيراً، وأن يسبحوا بحمد ربّهم جلّ وعلا صباحاً ومساءً وفي كلّ الأوقات

بـــالقول : ســـبحان الله وبحمده. والمعروف أنّ التّسبيح تنزيهٌ لله تعالى عن النّقائص الّتي ألحقها الظّالمون بالذّات العليّة، وأنّ التّحميد ذكرٌ للمحامد.

ويصّر المشركون على شركهم وصدّهم عن السّبيل، ويتحول السّياق إلى إنذارهم ولفـــت نظـــرهم إلى بعض مظاهر القدرة المطلقة للذّات العليّة وإنذار الكافرين وتبشير المؤمنين إن الّذين يجادلون في آي القرآن الكريم بغير برهانٍ لديهم من علمٍ أو عقل إنّما يـــندفعون بباعـــث الكبر الّذي في صدورهم، والحسد للنّبيّ ﷺ والمؤمنين على الفضل العظـــيم من الله تعالى عليهم. إنّ المشركين بجدالهم آيات الله تعالى بالباطل ليسوا ببالغي ذلك الفضل لأنّهم قد استحوذ عليهم الشيطان الرّجيم، فاستعذ يا محمّد ويا أيها المؤمن بالله تعالى السّميع البصير من الشّيطان الرّجيم ومن النّفس الأمّارة بالسوء.

إن مـــنكري البعث ليسوا مهيّئين لأن يفهموا أنّ الله تعالى الّذي خلقهم أوّل مرّةٍ باعـــترافهم قـــادرٌ عـــلى خلقهـــم مرّةً أخرى. وهم يعترفون بأنّ الله تعالى هو خالق السّـــماوات والأرض. وخلق السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس. فكيف يعترف المشـــركون بإيجاد الله تعالى السماوات والأرض والنّاس على غير مثالٍ سابق ثمّ ينكرون البعـــث، ويستصعبون عودة الحياة إلى الأجساد يوم القيامة بعد الموت والبلى! إنّ على المشـــركين الّذين اعترفوا بالأصعب في عرفهم أن يعترفوا بالأسهل، علماً بأنّ بدء الخلق وإعـــادة الخلق سواءٌ عند الله تعالى . أما الباعث للمشركين على الإنكار والجحود فهو عمى البصيرة، ولا يستوى المؤمنون الّذين يعملون الصّالحات والكافرون الّذين يعملون السّيّئات. ما أقلّ تذكر النّاس وأشد غفلتهم.

إنّ عليكم أيّها النّاس جميعاً أن تعلموا أنّ الساعة آتية لاريب فيها وأن تؤمنوا بذلك وتعملوا من أجله. وإنّ على الكافرين أن يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً، وأن يتحوّلوا إلى صـــفوف المؤمنين إنّ ربّ العزة والجلال يأمر المؤمنين أجمعين بأن يدعوه وحده لا

شريك له وَوَعَدَهم بالإجابة. إنّ الّذين يستكبرون عن عبادة الله تعالى، وإفراده بالعبادة، ودعائه وحده لاشريك له سيدخلون نار جهنّم داخرين صاغرين ذليلين حقيرين.

ويصّر المشركون على شركهم ويتحوّل السّياق إلى ذكر بعض الآيات الأخر الدّالاّت على القدرة المطلقة للذّات العليّة .

إنّ الله تعالى هو الّذي جعل لنا اللّيل لنسكن فيه بعد كدّ النّهار، وجعل النّهار نبصر فيه ونسعى خلاله ونبتغي فضل الله تعالى في أثنائه. إنّ الله تعالى لذو فضل عظيمٍ على النّاس بسبب آيتي اللّيل والنّهار ولكنّ أكثر النّاس لا يشكرون بل يكفرون فيشركون مع الله تعالى في العبادة سواه. إنّ الّذي جعل اللّيل والنّهار يخلف أحدهما الآخر هو الله تعالى ربّ العالمين خالق كلّ شيءٍ لا إله إلاّ هو ولا معبود بحقٍ سواه. فكيف تُصْرَفون أيّها المشركون عن الحق إلى الباطل رغم كل هذه الدلائل . وكما صُرف المشركون عن الإسلام يُصْرَف الّذين كانوا يجحدون بآيات الله تعالى في كلّ زمانٍ ومكان.

والله تعالى الّذي جعل اللّيل والنّهار خلفةً جعل لنا الأرض موضع استقرار، والسّماء سقفاً محفوظاً مرفوعاً بيد القدرة الإلهيّة، وصوّرنا فأحسن صورنا وجعلنا في أحسن تقويم، وتكفّل لكلّ دابةٍ في الأرض برزقها، ورزقنا نحن البشر من الطّيّبات المستلذات. إن الّذي فعل كلّ ذلك هو الله تعالى ربّ العالمين. فتبارك الله تعالى وتكاثر خير ربنا ربّ العالمين. إنّه عزّ وجلّ هو الحيّ الّذي لا يموت، لا إله إلاّ هو، فاعبدوه مخلصين له الدّين. الحمد لله تعالى ربّ العالمين، والثناء كلّه لله تعالى وحده دون سواه.

وتجاه حمق المشركين الّذين يدعون المصطفى ﷺ لعبادة آلهتهم يؤمر عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهم إنّ الله تعالى نهاني أن أعبد الّذين تعبدون من دونه عزّ وجلّ لّما

جاءني الآيات البيّنات من ربيّ جلّ وعلا، وأمرني أن أخلص العبادة له وحده دون سواه ربّ العالمين.

ومن مظاهر قدرة الله تعالى خلق النّاس. وبذلك يكون في السّياق إشارة إلى خلق السماوات والأرض، والليل والنّهار، وتهيئة الكون كي يكون مسخّراً للإنسان، الّذي خلقه جلّ وعلا في أحسن تقويم . وكأنّ ثمّة تدرّجاً بشأن عمليّة الخلق من الكبير إلى الصغير. إنّ الله تعالى هو الّذي خلقنا من ترابٍ في هيئة أبينا آدم، ثمّ يكون التّدرج في عمليّة الخلق حتّى يخرجنا الحقّ جل وعلا أطفالا ثم لنبلغ أوج قوّتنا البدنيّة والعقليّة، ثمّ لنكون شيوخاً. ومنّا من يتوفاه الله تعالى قبل ذلك، ولنبلغ عمراً معيّناً تنتهي فيه آجالنا، ولعلّنا نعقل هذه المعاني فنفرد الله تعالى بالعبادة. إنّ الله تعالى هو وحده الّذي يحيى ويميت. وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون فوراً.

ويصّر المشركون على موقفهم، ويشير السّياق إلى مصيرهم الأليم في نار الجحيم. ألم تر ايّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم إلى الّذين يجادلون في آيات الله تعالى بالباطل كيف يصرفون عن الإسلام إلى الكفر. إنّهم الّذين كذّبوا بآيات القرآن الكريم وبما أرسل الله تعالى به رسله من دعوةٍ إلى التّوحيد والإيمان بالبعث والجزاء، فسوف يعلم أولئك المشركون حقيقة خسارتهم إذ الأغلال في أعناقهم وأيديهم، وإذا السّلاسل في أرجلهم يُسحبون منها إلى الماء الشّديد الغليان ثمّ في النّار يُلْقَوْن ويكونون حطبها الّذي توقد به. ثم يُقال لهم وهم في ذلك الحال الكئيب أين الّذين كنتم تعبدونهم من دون الله تعالى كي ينقذوكم؟ قالوا غابوا عنا وخذلونا، بل لم نكن نعبد من دون الله تعالى أحداً، وإنّهم لكاذبون. وكما أضل الله تعالى هؤلاء يُضّل الكافرين في كلّ زمانٍ ومكان. إنّ هذا العذاب الأليم بسبب ما كانوا يفرحون في الحياة الدّنيا بما يغضب الله تعالى وبسبب أشرهم وبطرهم. ويقال لهم: ادخلوا أبواب جهنّم السّبعة خالدين فيها. فبئس مأوى المتكبّرين جهنّم.

ويعـــود السّياق إلى تسلية المصطفى ﷺ ، فاصبر يا محمّد إنّ وعد الله تعالى بنصرك حـــقّ. فإما نرينّك في حياتك بعض الّذي نعدهم من العذاب فذاك أمرٌ بيّن، أو نتوفّينّك فإنـــا منهم منتقمون ثمّ هم إلينا يرجعون يوم القيامة فنحاسبهم ونجازيهم. ولقد أرسلنا رســـلاً مـــن قـــبلك يا محمّد، منهم من قصصنا عليك في القرآن الكريم، ومنهم من لم نقصـــص عليك فاصبر كما صبروا. وما كان لرسولٍ أن يأتي بآيةٍ ومعجزةٍ إلاّ بإذن الله تعـــالى وليس وفق أهواء الكافرين. فإذا جاء أمر الله تعالى بهلاك المكذبين قُضِي بالعدل وخسر هنالك الّذين أرادوا أن يدحضوا الحقّ بباطلهم.

ويـــتحوّل السّـــياق إلى الحديـــث عن خلق الله تعالى الأنعام والسّفن، أي الحيوان والجمـــاد ، وذلـــك بعد الحديث عن خلق الله تعالى السّماوات والأرض والليل والنّهار والنّاس فثمّة تدرّجٌ لطيفٌ من الكبير إلى الصّغير، ومن الأعلى إلى الأدنى.

إن الله تعـــالى هـــو الّذي خلق الأنعام من إبلٍ وبقرٍ وغنم، لنركب منها كالإبل، ونـــأكل منها ونشرب كالإبل والبقر والغنم. ولنا فيها منافع مختلفة، ولنبلغ عليها حاجةً في صدورنا وغايةً في نفوسنا. وعلى الإبل نُحْمَل في البّر، وعلى السّفن نُحْمَل في البحر. والله تعـــالى يرينا آياته البيّنات في أنفسنا وفي الآفاق وفي كلّ شيء. فأيّ آيات الله تعالى ينكر الكافرون ويجحد المشركون !

أعجز كفّار مكّة فلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم الّذيـــن أهلكهـــم الله تعـــالى. لقد كانوا أكثر منهم عدداً، وأشدّ قوّة، وأعظم آثاراً في الأرض، فمـــا أغنى عنهم ما كانوا يكسبون من قوّةٍ ومنعةٍ بسبب ما كانوا يقترفون من آثام. فلما جاءت المكذّبين السّابقين رسل الله تعالى إليهم بالمعجزات الواضحات فرحوا بما عندهم من علمٍ غير نافعٍ بأنّ الله تعالى لا يرسل رسلاً، ولا يعذّب بعد الموت أحداً، لأنّـــه لـــيس ثمّة بعثٌ ولا جزاء. لقد حلّ بأولئك المشركين ما كانوا يستهزئون به من

عذابٍ ويستعجلون. فلما رأى المشركون عذاب الله تعالى الشّديد، وأخذه الأكيد، قالوا آمـــنّا بالله تعالى وحده دون سواه، وكفرنا بما كنّا به مشركين من آلهةٍ زائفة. فلم يك يـــنفع أولئك المشركين إيمانهم لّما رأوا عذاب الله تعالى قد حلّ بهم. إنّ هذه هي سنّة الله تعالى الّتي مضت في المستكبرين السّابقين، وخسر الكافرون في كلّ زمانٍ ومكان.

التّفسير

(١)

" الكتاب العزيز تنزيل الله تعالى مثيبُ التّائبين بالجنّة ومعاقِبُ المستكبرين بالنّار "

الآيات (١ - ٩) .

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ ﴾

سورة غافر أولى سور آل حم لأنّها تبدأ بالحروف المقطّعة : ﴿ حمٓ ۝١ ﴾ وما قيل عن الحروف المقطّعة أول البقرة يقال هنا. إنّ من العلماء من ذهب إلى القول : الله أعلم بمراده بذلك. وإنّ من العلماء من اجتهد في محاولة معرفة معناها. ومن ألطف الآراء الرّأي الّذي ذهب إلى أنّها إيماءٌ إلى التّحدّي بالقرآن الكريم. إنّ هذه الحروف الّتي تتألف منها كلمات القرآن الكريم هي الحروف الّتي تتألف منها الكلمات على ألسنة العرب ولكنّ القرآن الكريم نسيجُ وَحْدِه .

والحديث عن القرآن الكريم إثر الحروف المقطّعة يجيء في سورة غافر على الفور. إنّ تنزيل هذا الكتاب العزيز على محمّد بن عبد الله ﷺ من الله تعالى ، العزيز في ملكه، العليم الّذي أحاط بكل شيءٍ علماً، فلا يخفى عليه عزّ وجلّ شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ ﴾

غافر الذّنب وقابل التّوب : التّوب مصدرٌ سماعيٌ لفعل تاب يتوب، باب قال. وهو الرّجوع عن الذّنب. ومثله توبة[1] أي يغفر ما سلف من الذّنب، ويقبل التّوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه [2].

ذي الطّوْل : الطّوْل الفضل والقدرة والغنى والسّعة والعلوّ[3] وقوله عزّ وجلّ :

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١ / ١٨٠ وانظر تفسير الطّبري ٢٤ / ٢٧ .
[2] تفسير ابن كثير ٧ / ١١٧ .
[3] لسان العرب : " طول " .

﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ﴾ أي ذي القـــدرة. وقيل : الطّول الغِنى، والطّول الفضل. يقال : لفلانٍ على فلانٍ طَوْلٌ أي فضل [1].

تنزيل هذا الكتاب العزيز من الله تعالى العزيز العليم، غافر ذنب من استغفره، وقابل توبـــة مـــن تـــاب توبةً نصوحاً وأناب إلى ربّه عز وجلّ، شديد العقاب لمن أصرّ على ارتكاب الذّنوب وإتيان المعاصي، ذي القدرة المطلقة فعّالٍ لما يريد. إنّ هذه بعض نعوت الله تعـــالى الّذي لا إله إلاّ هو ولا ربّ سواه ولا معبود بحقٍ غيره. إليه عزّ وجلّ المصير يوم القيامة للحساب والجزاء، الثّواب أو العقاب.

والّـــذي جعلـــنا نمـــيل إلى أنّ الطَّوْل بمعنى القدرة، ومِنْ متعلّقاتها الفضل والنّعم المبســـوطة أنّ الذّهاب إلى أنّ الطَّوْل بمعنى القدرة والقوّة يوجد توازناً معنويّاً بين الرّحمة والغضب. إنّ القول : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ من متعلّقات الرّحمة والثّواب. وإنّ القـــول : ﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ مـــن متعلّقات الغضب والعقاب. والله تعالى أعلم .

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾

ما يجادل في آيات الله: ما يخاصم في حجج الله وأدلته على وحدانيته بالإنكار لها[2]

---

[1] لسان العرب : " طول " وانظر تفسير الطّبري ٢٤ / ٢٧ و ٢٨ .

[2] تفسير الطّبري ٢٤ / ٢٨ .

إلاّ الّذين كفروا : إلاّ الّذين جحدوا توحيده[1] .

فـــلا يغـــررك تقلّبهم في البلاد : فلا يخدعك يا محمّد تصرّفهم في البلاد وبقاؤهم ومكثهم فيها مع كفرهم[2] وأسفارهم فيها ومجيئهم وذهابهم[3] .

والأحـــزاب من بعدهم : وهم الأمم الّذين تحزّبوا وتجمّعوا على رسلهم بالتّكذيب لها كعادٍ وثمود وقوم لوطٍ وأصحاب مدين وأشباههم[4].

ليأخذوه : فيقتلوه[5] .

وجـــادلوا بالـــباطل ليدحضوا به الحقّ : وخاصموا رسولهم بالباطل من الخصومة ليبطلوا بجدالهم إيّاه وخصومتهم لـــه الحقّ الّذي جاءهم به من عند الله من الدّخول في طاعته، والإقرار بتوحيده، والبراءة من عبادة ما سواه [6] .

حقّت كلمة ربّك : وجبت كلمة ربّك[7] .

أنـــزل الله تعالى الكتاب العزيز على محمّد ﷺ لإخراج النّاس من ظلمات الشّرك والجهـــل إلى نور التّوحيد والعلم. وقد أصرّ كفار مكّة على شركهم وتكذيبهم ومجادلة الحقّ بباطلهم. يقرّر السّياق أنّه ما يجادل في آيات الله تعالى الواضحات وما يخاصم فيها بالـــباطل إلاّ الّذيـــن كفروا وجحدوا توحيد الله تعالى. فلا يغررك يا محمّد تقلّبهم في الـــبلاد، ولا يخدعك سفرهم من مكانٍ إلى آخر وإمهال الله تعالى لهم، ولا تحسبنّ أنّهم عـــلى الحـــقّ ولهذا لم يعاجلهم الله تعالى بالعقوبة. إنّ القوم على باطل، وإنّ إمهال الله

---

(١) تفسير الطّبري ٢٤ / ٢٨ .
(٢) تفسير الطّبري ٢٤ / ٢٨ .
(٣) تفسير الطّبري ٢٤ / ٢٨ .
(٤) تفسير الطّبري ٢٤ / ٢٨ .
(٥) تفسير الطّبري ٢٤ / ٢٨ .
(٦) تفسير الطّبري ٢٤ / ٢٨ .
(٧) تفسير الطّبري ٢٤ / ٢٩ .

تعـــالى لهـــم من أجل إعطائهم الفسحة من الوقت كي يتدبّروا الأمر ويعودوا إلى جادّة الصّواب، وإلاّ كان أخذ الله تعالى لهم بالعذاب أكيداً في الوقت المقدّر لهم.

إنّ لك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم أسوة حسنةً في النّبيين السّابقين مع أممهم المكذّبة لهم. لقد كان الهلاك مصير المكذّبين والنّصر مصير النّبيّين والمؤمنين. وإنّ النّصر حليفك يا محمّد في النّهاية بأمري . كذبت قبلك قوم نوحٍ والأمم المتحزّبة على الكفر والمتعاونة على الصّدّ عن سبيلي كعادٍ وثمود وقوم إبراهيم ولوطٍ وشعيبٍ عليهم السّلام. وهمّـــت كـــلّ أمّةٍ برسول الله تعالى إليهم ليأخذوه فيقتلوه، وجادلوا الحقّ من الله تعالى بباطلهم ليغلبوا الحقّ ويدحروه، فأخذتهم بالعذاب، واستأصلت شأفتهم بالهلاك. فكيف كان عقابي؟ لقد كان أكيداً. وكيف كان عذابي؟ لقد كان شديداً.

وكما وجبت كلمة الله تعالى بعذاب الكافرين السّابقين في الأولى بخزي الدّنيا وفي الآخرة بدخول النّار، وجبت كلمة الله تعالى بعذاب قومك يا محمّد إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً. إنّ لهم بالإضافة إلى عذاب الدّنيا خزي الآخرة بأنّهم أصحاب النّار وبئس القرار. وواضحٌ أنّنا بصدد تسليةٍ للمصطفى ﷺ .

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

الّذين يحملون العرش ومن حوله : الّذين يحملون عرش الله من ملائكته ومن حول عرشه ممّن يحفّ به من الملائكة[1] .

يسبّحون بحمد ربّهم : يقولون سبحان الله وبحمده[2] ويقرنون بين التّسبيح الدّالّ على نفي النّقائص، والتّحميد المقتضى لإثبات صفات المدح[3] .

ويؤمنون به : ويقرّون بالله أنّه لا إله لهم سواه ويشهدون بذلك لا يستكبرون عن عبادته[4] .

واتّبعوا سبيلك : وسلكوا الطّريق الّذي أمرهم أن يسلكوه، ولزموا المنهاج الّذي أمرهم بلزومه، وذلك الدّخول في الإسلام[5].

وقهم السّيّئات : واصرف عنهم سوء عاقبة سيّئاتهم الّتي كانوا أتوها قبل توبتهم

---

[1] تفسير الطّبري ٢٤ / ٢٩ .

[2] الجلالين .

[3] تفسير ابن كثير ٧ / ١٢٠ .

[4] تفسير الطّبري ٢٤ / ٢٩ .

[5] تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٠ .

وإنابتهم [1] وقهم فعل السّيّئات أو وبالها ممّن وقعت منه[2] .

الّذيـــن يحملـــون عرش الرّحمن من الملائكة الكرام ومن حول العرش من الملائكة الكـــرام لا تكـــفّ ألســـنتهم عن تسبيح الله تعالى وتحميده وذلك بقول : سبحان الله وبحمده، وبذلك هم بالتسبيح يترّهون الله تعالى عن كلّ ما ألحقه به الظّالمون ممّا لا يليق بجلاله وعظمته، وهم بالتّحميد يثبتون للذّات العليّة كلّ المحامد الّتي لا يحيط بها لسان ولا خاطـــر. والملائكة يؤمنون بالله تعالى، يوحّدونه، ويخلصون له العبادة، ولا يعصون الله تعالى ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. والملائكة يستغفرون الله تعالى للمؤمنين الّذين تابوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً، ويقول الملائكة الكرام: يا ربّنا قد وسعت رحمتك كلّ شيءٍ وحـــيّ، وأحاط علمك بكلّ شيءٍ وحيّ. ربّنا فاغفر للمؤمنين الّذين تابوا من ذنوبهم، واتّـــبعوا سبيلك الّذي دعوتهم إليه بدخول دين الإسلام، وقهم عذاب جهنّم ، واصرف عنهم عذاب السّعير، وزحزحهم عن النّار.

يا ربنا وأدخلهم جنات عدن وبساتين الإقامة الّتي وعدتهم في الدّنيا بدخولها في الآخرة هـــم ومـــن صـــلح من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم. إنّك أنت العزيز في ملكك الحكيم في صـــنعك، وارفع درجتهم إن كانوا أقلّ درجات. قال تعالى: [3] ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾.

وقهـــم السّـــيّئات واصـــرفهم عنها واصرف عنهم تبعاتها. ومن تقِ يا الله عذاب السّيّئات يوم القيامة وتبعاتها فقد رحمته وشملته بفضلك.

وإنّ الـــنّجاة من نار الجحيم ودخول جنّات النّعيم هو حقّاً الفوز العظيم والنّجاح الكبير، الّذي لا فوز يساويه، ولا نجاح يدانيه .

---

(١)تفسير الطبري ٢٤ / ٣٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٧ / ١٢٢ .

(٣) سورة الطّور ٢١ وما ألتناهم : وما نقصناهم .

(٢)

" اللّه تعالى الواحد القهّار السّريع الحساب يحكم

يوم القيامة بين الخلائق بالعدل "

الآيات (١٠ - ٢٢) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾

لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم : المقت البغض الشّديد لمن تراه تعاطى القبيح[1] لمقت الله إيّاكم أيّها القوم في الدّنيا إذ تُدْعَوْن فيها للإيمان بالله فتكفرون أكبر من مقتكم اليوم أنفسكم لما حلّ بكم من سَخَط الله عليكم[2] .

أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين : كانوا أمواتاً في اصلاب آبائهم فأحياهم الله في الدّنيا، ثمّ أماتهم الموتة الّتي لابدّ منها، ثمّ أحياهم لبعث يوم القيامة. فهما حياتان وموتتان[3] .

فهـــل إلى خروجٍ من سبيل : فهل إلى خروج من النّار لنا سبيلٌ لنرجع إلى الدّنيا فنعمل غير الّذي كنّا نعمل فيها [4] .

ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم : في هذا الكلام متروك استغنى بدلالة الظّاهر مـــن ذكره عليه وهو : فأجيبوا أن لا سبيل إلى ذلك. هذا الّذي لكم من العذاب أيّها الكافرون بأنّه إذا دُعِيَ الله وحده كفرتم فأنكرتم أن تكون الألوهية له خالصة[5] وبسبب أنّه في الدّنيا[6] كان كفركم.

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : " مقت " ٢ / ٦٠٨ .

(٢) تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٠ .

(٣) تفسير الطّبري ٢٤ / ٣١ .

(٤) تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٢ .

(٥) تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٢ .

(٦) الجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١ / ١٨٦ .

وإن يُشرك به تؤمنوا : وإن يُجعل لله شريكٌ تصدّقوا من جعل ذلك له [1].

إنّ الّذيـــن كفروا بالله تعالى تناديهم ملائكة العذاب بعد أن دخل الكافرون النّار واحتقروا أنفسهم أشدّ الاحتقار وأبغضوها أشدّ البغض لإتيانها القبيح في الدّنيا بإشراكها مع الله تعالى سواه وتقول لهم : لمقت الله تعالى لكم وبغضه الشديد لكم في الدّنيا أكبر من مقتكم أنفسكم الآن. إذ تُدعون في الحياة الدنيا إلى الإيمان فتكفرون .

قالوا يا ربّنا لقد أمتّنا مرّتين اثنتين وأحييتنا مرّتين اثنتين ، فكنّا في الأصلاب أمواتاً، ثمّ كـــنّا بـــالولادة أحياءً، ثم بالوفاة أمواتاً، ثمّ بالبعث أحياءً. ربّنا لقد اعترفنا بذنوبنا، وبتقصـــيرنا في جنبك يا ربنا، فهل إلى خروج من النّار إلى الحياة الدّنيا مرّة أخرى من سبيل ونصيب؟

قيل لهم : ليس لكم إلى خروج من النّار ورجوعٍ إلى الدنيا من سبيل بسبب أنّكم كنـــتم إذا دعي الله تعالى وحده لاشريك لـــه كفرتم، وإن يُشْرَك به عزّ وجلّ تصدقوا مـــن أشرك. فالحكم في هذا اليوم المجموع لـــه النّاس المشهود لله تعالى الأعلى من كلّ عال، الأكبر من كلّ كبير.

ولابن كثير تعقيب قيّم على قول الحقّ جلّ وعلا على لسان الكافرين : ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ يقول رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[2] : "والمقصود من هذا كله أنّ الكفّار يَسْألون الرّجعة وهم وقوفٌ بين يدي الله عزّ وجلّ في عرَصات القيامة كما قال[3]: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ فلا يجابون ثمّ إذا

---

[1] تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٢ .

[2] تفسير ابن كثير ٧ / ١٢٣ .

[3] سورة السّجدة ١٢ .

رأوا النّار وعاينوها ووقفوا عليها ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنّكال سألوا الرّجعة أشدّ ممّا سألوا أوّل مرّة فلا يجابون. قال الله تعالى [1] : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ فإذا دخلوا النّار وذاقوا مسّها وحسيسها ومقامها وأغلالها كان سؤالهم للرّجعة أشدّ وأعظم [2] ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ ، ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [3]

وفي هذه الآية الكريمة تلطّفوا في السؤال، وقدموا بين يدي كلامهم مقدّمة، وهي قولهم : ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا ﴾ أي قدرتك عظيمة. فإنّك أحييتنا بعدما كنّا أمواتاً، ثمّ أمتّنا ثمّ أحييتنا، فأنت قادرٌ على ما تشاء. وقد اعترفنا بذنوبنا، وإنّنا كنّا ظالمين لأنفسنا في الدّار الدّنيا : ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ أي فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدّار الدّنيا؟ فإنّك قادرٌ على ذلك، لنعمل غير الّذي كنّا نعمل. فإن عدنا إلى ما كنّا فيه فإنّا ظالمون. فأجيبوا أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدّار الدّنيا. ثمّ علّل المنع من ذلك بأنّ سجاياكم لا تقبل الحقّ ولا تقتضيه ، بل تجحده وتنفيه" .

---

(١) سورة الأنعام ٢٧ و ٢٨ .

(٢) سورة فاطر ٣٧ .

(٣) سورة المؤمنون ١٠٧ و ١٠٨ .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾

وما يتّذكرّ إلاّ من ينيب : وما يتّعظ إلاّ من يرجع إلى توحيده ويقبل على طاعته[1] والإنابة إلى الله تعالى الرّجوع إليه بالتّوبة وإخلاص العمل[2] .

رفيع الدّرجات : أي الله عظيم الصّفات[3] .

يلقي الرّوح من أمره على من يشاء من عباده : ينّزل الوحي[4] .

يوم التّلاق : قال ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما : يوم التّلاق من أسماء يوم القيامة عظّمه الله وحذّره عباده[5] يومٌ تلتقي فيه أهل السّماء وأهل الأرض والخالق والخلقِ[6] والعابد والمعبود والظّالم والمظلوم[7] .

---

(١) انظر تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٢ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني في : " نوب " ٢ / ٦٥٧ .

(٣) الجلالين .

(٤) تفسير الطبري ٢٤ / ٣٣ .

(٥) تفسير الطبري ٢٤ / ٣٣ .

(٦) تفسير الطبري ٢٤ / ٣٣ .

(٧) الجلالين .

يوم هم بارزون : يوم هم ظاهرون للنّاظرين[1] والبَراز الفضاء : وبرز حصل في بَراز[2] .

الله تعالى هو الّذي يُري عباده آياته في السّماء والأرض ومظاهر قدرته الدّالّة على وحدانيّته. والله تعالى يترّل لنا من السّماء ماءً يحيى به الأرض، ويسقي به الزّرع والضّرع، ويجعل منه كلّ شيءٍ حيّ، ومصدراً من أهمّ مصادر الرّزق. إنّ الّذين يرجعون إلى الله تعالى بالتّوبة والعمل الصّالح هم الّذين يتّعظون بهذه الآيات البيّنات.

فاعبدوا الله تعالى أيها النّاس مخلصين له الدّين، متبرّئين من كلّ صنوف الشّرك، موحدين الله تعالى، مخلصين له العبادة، ولو كره الكافرون إفرادكم الله تعالى بالعبادة.

الله تعالى رفيع الدّرجات، عظيم الصّفات، ذو العرش الكريم، والمجد الرّفيع، يترّل الوحي من أمره على من يشاء من عباده، لينذرهم يوم القيامة الّذي يتلاقى فيه الناس، والخالق والخلق، والأوّلون والآخرون، والمؤمنون والكافرون. في ذلك اليوم العظيم يكون العباد في الفضاء، ويظهرون في البَراز، لا يسترهم ساتر، ولا يخفى على الله تعالى منهم شيءٌ حسّاً ولا معنى. فإذا قبض عزّ وجلّ أرواح جميع خلقه فلم يبق سواه وحده لا شريك له حينئذٍ يقول : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ؟ ثلاث مّرات ، ثمّ يجيب نفسه قائلاً : ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾[3].

في يوم القيامة تُجْزى كلّ نفس بما كسبت من خيرٍ أو شرّ: ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ بحذف حسنةٍ أو إضافة سيّئة. إن الله تعالى سريع الحساب سبحانه .

---

(١) تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٣ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : "برز" ١ / ٥٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ٧ / ١٢٥ .

ثبت في الصّحيح عن عبد الله بن الزّبير أنّ رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصّلوات المكتوبات : لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير. لاحول ولا قوة إلاّ بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلاّ إيّاه، له النّعمة وله الفضل وله الثّناء الحسن. لا إله إلاّ الله مخلصين له الدّين ولو كره الكافرون[1] .وثبت في صحيح مسلم عن أبي ذرّ عن رسول الله ﷺ فيما يحكى عن ربّه عزّ وجلّ أنّه قال: يا عبادي إنّي حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّماً فلا تظالموا. إلى أن قال يا عبادي إنّما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثمّ أوفّيكم إيّاها. فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلايلومنّ إلاّ نفسه[2] .

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾

يـــوم الآزفـــة : يوم القيامة [3] قال تعالى : [4] ﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ ﴾ أي دنت القيامة[5].

---

(١) تفسير ابن كثير ٧ / ١٢٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٧ / ١٢٦ .

(٣) تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٤ .

(٤) سورة النجم ٥٧ .

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني : " أزف " ١ / ٢ .

إذ القلـــوب لـــدّى الحناجر كاظمين : إذ قلوب العباد من مخافة عقاب الله لدى حـــناجرهم قـــد شخصت من صدورهم فتعلّقت بحلوقهم كاظميها يرومون ردّها إلى مواضعها من صدورهم فلا ترجع، ولا هي تخرج من أبدانهم فيموتون[1] والكظم مخرج النَّفَس[2] وكظْم الغيظ : تجرّعه واحتمال سببه والصّبر عليه[3] وحَبْسه[4] .

مـــن حمـــيم : الحميم في الأصل الماء الشّديد الحرارة . وأطلق الحميم على القريب المشفق الّذي يحتمّ لقريبه أي يهتّم ويحتدّ[5] .

وأنذر يا محمّد يوم القيامة الوشيك الوقوع إذ قلوب الكافرين من الكرب العظيم، والخـــوف الشّديد، قد غادرت موطنها، وانخلعت من أماكنها، بقصد مغادرة الأجساد، ولكـــنّ الحـــناجر أوصدت أمامها السّبل، وسدّت المسالك، فنشبت القلوب بالحناجر، وبقـــي الخوف محبوساً، والأسى متنامياً، والكرب متفاقماً. وبسبب امتلاء النّفوس همّاً وغمّـــاً لم تســـتطع القلوب العودة إلى أماكنها وذلك دليل على أنّ القوم يعيشون حياة شـــقيّة وليست هنيّة. وبسبب ضيق الممّر وحبس الحناجر القلوب ومنعها من المرور لم تستطع القلوب مغادرة الأجساد، وذلك دليلٌ على أنّ القوم لم يموتوا كي يستريحوا.

إنّ المشـــركين الّذيـــن تلك حالهم ليس لهم من شخصٍ قريبٍ شفيقٍ يرثي لحالهم ويهـــتمّ بشـــأنهم، فكلّ امرئٍ له شأن يغنيه. وليس لهم شفيعٌ يطاع، لأن الشّفاعة إنّما تكـــون لمن شهد في الدّنيا أنّه لا إله إلاّ الله، وهؤلاء مشركون، فليس لهم شفعاء أصلاً ولا شفاعة مطلقاً.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٥ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : " كظم " ٢ / ٥٥٨ ولسان العرب " كظم " .

(٣) لسان العرب : " كظم " .

(٤) انظر لسان العرب : " كظم ".

(٥) انظر مفرداتّ الرّاغب الأصفهاني : " حمم " ١ / ١٧١ و ١٧٢ ولسان العرب : " حمم " .

وإنّ ذكـــر القلوب رشّح لذكر الأعين والصّدور. وأعين الظّالمين وصدورهم من جنس قلوبهم المملوءة بالكفر. إنّ الأعين خائنة، والله تعالى يعلم خيانتها، ولا يخفى عليه جـــلّ وعلا ما تخفي صدور الكافرين من حبٍّ للشّرك وبغض للإسلام. والله تعالى يعلم كلّ عينٍ خائنة وما يخفي كلّ صدر من خيرٍ أو شرّ.

والعجيـــب في أمـــر المشـــركين أنّهم يصرّون على عبادة الآلهة العاجزة في الأولى والآخـــرة والّتي لا تحكم بشيء، ولا يوحّدون الله تعالى السّميع البصير الّذي يقضي في الآخرة بالحقّ ويحكم بالعدل .

﴿ ۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾

أو لم يسيروا في الأرض : أَغَفَلُوا و لم يسيروا في الأرض[1]

أغفـــل كفّار مكّة و لم يسيروا في الأرض في أثناء رحلة الشتاء إلى اليمن والجنوب حيـــث عـــادٌ قوم هودٍ عليه السّلام ورحلة الصّيف إلى الشّام والشّمال حيث ثمود قوم صالحٍ عليه السلام، فينظروا بعين البصر والبصيرة كيف كان عاقبة الّذين كانوا من قبلهم وعـــلى شاكلتهم. لقد كانوا أشدّ من كفّار قريش قوّةً وآثاراً في الأرض، ففي كلّ ريعٍ

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١ / ١٩٢ .

لعـــادٍ آية من مصنع أو قصر، وفي كلّ جبلٍ أو سهل لعاد بيتٌ أو قصر. لقد أهلك الله تعـــالى كلاًّ من عادٍ وثمود ومن شاكلهم من الكافرين المكذّبين وما كان لهم من عذاب الله تعالى من واقٍ يقيهم العذاب، أو دافعٍ يدفعه، أو صارفٍ يصرفه.

كـــان ذلك العذاب الشّديد، والهلاك الأكيد، بسبب أنّهم كانت تأتيهم رسل الله تعـــالى بالآيـــات البيّنات، والحجج الواضحات الدّالاّت على وحدانية الله تعالى فكفروا فـــأخذهم الله تعالى بعذابه. إنّه جلّ وعلا قويٌّ يفعل ما يريد، شديد العقاب في الأولى والآخرة لمن أصرّ على كفره وتكذيبه.

(٣)

" إنقاذ الله تعالى موسى عليه السّلام ومؤمن آل فرعون من فرعون وآله الّذين حلّ بهم سوء العذاب في الأولى والآخرة "

الآيات (٢٣ - ٤٦) .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

يتحوّل السّياق إلى الحديث عن موسى بن عمران عليه السلام بقصد تسلية المصطفى ﷺ . وما أكثر الحديث عن موسى عليه السلام في القرآن الكريم لهذا القصد، وذلك بسبب وجه الشّبه الكبير بين ملابسات كلٍّ من الدّعوة الموسويّة والدّعوة المحمّديّة. ولقد أرسل الله تعالى موسى عليه السلام بالآيات البيّنات والحجج الواضحات. وآيات موسى عليه السّلام التّسع المحسوسات هي : العصا ، واليد ، والسّنون ، والنّقص من الثّمرات، والطّوفان، والجراد ، والقُمَّل ، والضّفادع ، والدّم.

والله تعالى أرسل موسى عليه السلام، بالآيات والسّلطان المبين إلى فرعون طاغية مصر وملك الأقباط، وهامان وزيره، وقارون الّذي كان من بني إسرائيل بنصّ القرآن الكريم[1] فقالوا عن موسى عليه السلام إنّه ساحرٌ كذّاب يقلب العصا حيّةً — مثلاً — ويعيدها عصا . وهكذا .

فلمّا جاءهم موسى عليه السّلام بالحق من عند الله تعالى بتوحيده عزّ وجلّ وإفراده بالعبادة قال فرعون وملؤه للقبط اقتلوا أبناء الّذين آمنوا مع موسى من بني إسرائيل واستبقوا البنات أحياء كي يقمن بالخدمة حينما يبلغن مبلغ النّساء، ولهذا عُبّر عنهنّ بلفظ النّساء. وما كيد الكافرين إلاّ في خسار وما مكر المستكبرين إلاّ في تبار.

---

[1] سورة القصص ٧٦ .

والأمر بقتل الأبناء من بني إسرائيل واستحياء النّساء هو الأمر الثّاني بقصد إهانة فرعون بني إسرائيل وتقليل عددهم، أمّا الأمر الأوّل قبل مجيْ موسى عليه السّلام فكان بقصد قتل ذكور بني إسرائيل وفيهم الطفل الذي سيكون على يديه مستقبلاً ذهاب ملك فرعون الطّاغية. وإلى هاتين المرتين أومأت الآية الكريمة الّتي تضمّنت بعض الحوار الذي دار بين موسى عليه السّلام وقومه في سورة الأعراف[1] قال تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

وقال فرعون الطّاغية للّذين كانوا يكفّونه عن قتل موسى عليه السّلام : ذروني أقتل موسى وليدع ربّه الّذي يزعم أنّه أرسله أن يحميه ويمنعه منّي! إنّي أخاف أن يبدّل موسى دينكم بأن تعبدوا الله بعد أن كنتم تعبدونني، أو أن يظهر في الأرض الفساد بنشر دين التّوحيد على حساب عبادتكم لي. وهذا كما يقال في المَثَل : صار فرعون مذكّراً، يعني واعظاً، يشفق على النّاس من موسى عليه السّلام ![2]

وحينما بلغ موسى عليه السّلام عزم فرعون على قتله قال : إنّي عذت بربّي

---

[1] الآية ١٢٩ .

[2] تفسير ابن كثير ٧ / ١٢٩ .

وربّكـــم ولجأت إليه جلّ وعلا من كلّ متكبرٍ عن عبادة الله تعالى وتوحيده، لا يؤمن بيوم الحساب، ولا يعمل ليوم القيامة. وفي مقدّمة هؤلاء المتكبّرين فرعون الطاغية.

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾

أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله : أتقتلون أيّها القوم موسى لأن يقول ربّي الله [1].

وقد جاءكم بالبيّنات من ربّكم: وتلك البيّنات من الآيات يده وعصاه[2] .

وإن يـــك كاذبـــاً فعليه كذبه: وإن يك موسى كاذباً في قيله أن الله أرسله إليكم يأمركم بعبادته وترك دينكم الّذي أنتم عليه فإنّما إثم كذبه عليه دونكم.[3]

وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم : وإن يك صادقاً في قيله ذلك أصابكم الّذي وعدكم من العقوبة على مقامكم على الدّين الّذي أنتم عليه مقيمون، فلا حاجة بكم إلى قتله فتزيدوا ربّكم بذلك إلى سَخَطه عليكم بكفركم سَخَطا[4] .

إن الله لا يهدي من هو مسرفٌ كذاب: مشرك أسرف على نفسه بالشرك[5] .

---

(١) تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٨ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١ / ١٩٧ .

(٢) تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٨ .

(٣) تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٨ .

(٤) تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٩ .

(٥) تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٩ .

يـــا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض : لكم السّلطان اليوم والملك ظاهرين أنتم على بني إسرائيل في أرض مصر[1] .

فمـــن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا : فمن يدفع عنّا بأس الله وسطوته إن حلّ بنا، وعقوبته إن جاءتنا[2] .

قال فرعون ما أريكم إلاّ ما أرى : ما أريكم أيّها النّاس من الرّأي والنّصيحة إلاّ ما أرى لنفسي ولكم صلاحاً وصواباً[3] .

ومـــا أهديكم إلاّ سبيل الرّشاد : وما أدعوكم إلاّ إلى طريق الحقّ والصّواب في أمر موسى وقتله، فإنكم إن لم تقتلوه بدّل دينكم وأظهر في أرضكم الفساد[4] .

كـــان ثمّة رجلٌ مؤمن بموسى عليه السلام يكتم إيمانه ويستره، وهو رجلٌ قبطيّ، ويقال إنّه ابن عم فرعون[5] ويُعْتَقد أنّ له مكانةً مرموقةً في القصر، وله دالّة على فرعون وجـــرأة ومنزلـــة، والدّليل على كلّ ذلك قوله المسهب، ونصائحه الموصولة، وحواره الطّويل للقوم، وجهره بكلمة الحق، وإعلانه الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر.

قـــال هذا الرّجل الّذي يكتم إيمانه لفرعون وملئه في أسلوب الاستفهام الإنكاريّ: أتقتلون رجلاً لأنّه يقول ربي الله؟ ولا يخفى أنّ هذا القول يصطدم بما يدعيه فرعون من أنّه ربّ قومه الأعلى. وينبغي أن يكون هذا القول قد طعن فرعون في كبريائه. ويواصل الـــرّجل القبطيّ المؤمن بموسى عليه السلام قوله ويقوّي استفهامه الإنكاري بالتّعليل : ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ والمعـــنى : وقد جاءكم موسى دليلاً على صدقه

---

(1) تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٩ .
(2) تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٩ .
(3) تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٩ .
(4) تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٩ .
(5) تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٩ .

وأنّه رسول رب العالمين بالآيات المعجزات من ربّكم عزّ وجلّ، بدليل العجز عن مجاراة تلـــك المعجزات أو إفسادها. وإن يك موسى كاذباً فعليه كذبه وسوف يعاقبه الله تعالى علـــيه في الأولى والأخرة. وإن يك صادقاً وقتلتم رسول الله تعالى إليكم يصبكم بعض الّذي يعدكم من خزي الدّنيا وعذاب الآخرة إن الله تعالى لا يهدي من هو مسرف على نفسه بالشرك وبالكذب على الله تعالى بنسبة الولد والشّريك إليه.

وينادي الرّجل المؤمن قومه في لطفٍ دليلاً على دماثة خلقه وحُنْكته فيقول : يا قوم لكـــم اليوم الملك والسّلطان ظاهرين في أرض مصر على بني إسرائيل، فمن ينصرنا من عذاب الله تعالى، ومن ينقذنا إن جاءنا بصرف العذاب أو تخفيفه.

ويلاحـــظ أنّ هذا المؤمن الحكيم لا يصف قومه على حقيقتهم بأنهم يسومون بني إســـرائيل الخسف ويمارسون معهم أبشع أنواع الظّلم، إنّما يمسّ هذه المسألة مسّاً خفيفاً خوفـــاً من أن يثير حفيظة القوم، ويهيج كامن حقدهم وعداوتهم، فيتنفّسوا بالمبادرة إلى قتل موسى عليه السّلام .

قـــال فرعون ردّاً على الرّجل المؤمن مخاطباً ملأه وليس الرّجل القبطيّ المؤمن دليلاً على منزلته الرّفيعة لدى فرعون: ما أريكم أيّها الملأ إلاّ ما أرى لنفسي وأنصحها به وهو أن نبادر إلى قتل موسى، وما أهديكم أيها الملأ إلا طريق الهدى وسبيل الرّشاد. وكذب الطّاغـــية، فالله سبحانه وتعالى يقول [1] : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ ﴾ وقـــال تعالى [2] : ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

---

[1] سورة هود ٩٦ و ٩٧ .

[2] سورة طه ٧٩ .

روى البخاريّ في صحيحه[1] أنّ عروة بن الزّبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرني بأشدّ ما صنع المشركون برسول الله ﷺ قال : بينما رسول الله ﷺ يصلّي بفناء الكعبة إذ أقبل عُقْبة بن أبي مُعَيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً. فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ وقال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾

مثل دأب قوم نوح : أي كعادتهم الّتي يستمرّون عليها. والدّأب العادة المستمرّة دائماً على حالة[2] يقول : يفعل ذلك بكم فيهلككم مثل سنّته في قوم نوحٍ وعادٍ وثمود وفعله بهم[3].

وقال الّذي آمن لفرعون وملئه يا قوم إنّي أخاف عليكم يوماً مثل يوم عذاب الأمم المتحزّبة على الباطل لتكذيبها رسل الله تعالى إليها . ويلاحظ تكرار القول : ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ دليلاً على دماثة خلق هذا المؤمن وعرك الحياة له وها هوذا يحاول جاهداً أن يستميل القوم إلى جانبه ويتحاشى أن يهيجهم ضدّه.

---

(1) فتح الباري ٨ / ٥٥٣ حديث رقم ٤٨١٥ .

(2) مفردات الرّاغب الأصفهاني : " دأب " ١ / ٢٣١ .

(3) تفسير الطّبري ٢٤ / ٣٩ .

لقد مضت سنّة الله تعالى بإهلاك المكذبين من الأحزاب مثل قوم نوحٍ وهودٍ وصالح عليهم السّلام والأمم المتحزّبة على الباطل من بعد هؤلاء. والله سبحانه وتعالى لا يريد ظلماً للعباد بحذف حسنةٍ أو إضافة سيّئة.

﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

إنّي أخاف عليكم يوم التّناد : إنّي أخاف عليكم بقتلكم موسى إن قتلتموه عقاب الله يوم التّناد[1] أي يوم القيامة، يكثر فيه نداء أصحاب الجنّة أصحاب النّار وبالعكس، والنّداء بالسّعادة لأهلها والشّقاوة لأهلها[2] ونداء بعض النّاس بعضاً من هول ما قد عاينوا من عظيم سلطان الله وفظاعة ما غشيهم من كرب ذلك اليوم[3] .

يوم تولّون مدبرين : عن موقف الحساب إلى النّار[4].

ما لكم من الله من عاصم : ما لكم من عذاب الله [5] من مانعٍ يمنعكم وناصرٍ ينصركم [6] .

يستمرّ مؤمن آل فرعون في إنذار الملأ من آل فرعون فيكرّر النداء : ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ ويعبّر لهم صراحةً عن خوفه عليهم من يوم القيامة الّذي ينادي فيه بعض النّاس بعضاً

---

(١) تفسير الطّبري ٢٤ / ٤٠ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير الطّبري ٢٤ / ٤٠ .

(٤) الجلالين .

(٥) الجلالين .

(٦) تفسير الطّبري ٢٤ / ٤١ .

لهـــول الموقـــف رجاء العون أو الإنقاذ. في يوم القيامة يولّي النّاس الأشقياء عن موقف الحســـاب مدبرين إلى النار وبئس القرار. وليس لهم من عاصمٍ ولا مانعٍ من عذاب الله تعالى ولا ناصر .

ومـــن يضلل الله تعالى ويكتب عليه الشّقاوة فليس لـــه من هاد يستطيع أن ينقذه من النّار.

ومن البيّن أنّ هذا المؤمن من آل فرعون على علمٍ كبيرٍ بملابسات يوم القيامة الّذي يعـــتقد أنّه علمه عن طريق موسى عليه السلام الّذي آمن به هذا الرّجل النّاصح الأمين الّذي يكتم إيمانه.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

ولقد جاءكم يا أهل مصر يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام من قَبْل موسى عليه السّلام بالآيات البيّنات والمعجزات الواضحات الدّالاّت على وحدّانـــية الله تعالى، فمازلتم في شكٍ وارتياب ممّا جاءكم به، وغير مطمئني القلوب إلى أنّ كـــلّ ذلك من عند الله تعالى. هذا هو دأبكم وذلك هو دينكم. الشّكّ في رسل الله تعالى والارتياب في صحّة ما دعوكم إليه من توحيدٍ لله تعالى وإفرادٍ له بالعبادة.

حتى إذا مات يوسف عليه السلام كان منكم القول، تأكيداً للشكوك التي تغلي في صـــدوركم والرّيـــب وعـــلى جهة التّمني: إن الله تعالى لن يبعث من بعد يوسف عليه الســـلام رسولاً. وإنّ موقفكم من موسى عليه السلام امتدادٌ لموقف آبائكم على عهد

يوســـف عليه السلام وتمنّيهم. وكما أضلّ الله تعالى المشركين المرتابين من قبل يضلّ الله تعالى اللاّحقين كفرعون وآله.

ويلاحـــظ أنّ اسم يوسف عليه السلام يجيء هنا في سورة غافر، كما جاء من قبل في الآية الكريمة الرّابعة والثّمانين من سورة الأنعام. وجاء اسم يوسف عليه السلام وراء ذلك في القرآن الكريم في سورة يوسف وَحْدَها.

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

ويستّمر المؤمن الّذي يكتم إيمانه في حديثه معلّقاً على الّذين يجادلون في آيات الله تعالى بالباطل ليبطلوها. إنّ الذين يخاصمون في آيات الله تعالى بباطلهم، والّذين يجادلون في حجج الله تعالى بأهوائهم ليدحضوا الحقّ، كبر مقتهم عند الله تعالى وبغضه الشّديد لهم، وكذلك كبر مقتهم وبغضهم عند الّذين آمنوا . وكما طبع الله تعالى كلّ قلوب المتكبّرين الجبّارين من فرعون وآله يطبع على كلّ قلب متكبّر جبّار. وحينما يُطبع على القلب، ويُختَم على الفؤاد، لا يستطيع نور الهدى أن يدخل ولا يستطيع ظلام الباطل أن يخرج، والعياذ بالله تعالى .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

يا هامان ابن لي صرحاً : هو القصر العالي المنيف الشّاهق وكان اتّخاذه من الآجرّ المضروب من الطّين المشويّ كما قال[1] ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[2].

لعليّ أبلغ الأسباب . أسباب السّماوات : أسباب السّماوات طرقها[3]

فأطلع إلى إله موسى : يقال طلعت عليهم واطّلَعْت وأَطْلَعْتُ بمعنىً واحد[4] والمراد رؤية إله موسى[5] .

وإنّي لأظنّه كاذباً : وإنّي لأظنّ موسى كاذباً فيما يقول ويدّعي من أنّ له في السّماء ربّاً أرسله إلينا[6] وأنّ له إلهاً غيري[7] .

---

[1] سورة القصص ٣٨ .

[2] تفسير ابن كثير ٧ / ١٣٤ .

[3] تفسير الطّبري ٢٤ / ٤٢ .

[4] لسان العرب : " طلع " .

[5] تفسير الطّبري ٢٤ / ٤٣ .

[6] تفسير الطّبري ٢٤ / ٤٣ .

[7] الجلالين .

وما كيد فرعون إلاّ في تباب : وما احتيال فرعون الّذي يحتال للاطّلاع إلى إله موسى إلاّ في خسار[1] وضلال وخسران[2] وذهاب مال وغبن، لأنّه ذهبت نفقته الّتي أنفقها على الصّرح باطلاً، ولم ينل بما أنفق شيئاً ممّا أراده[3] .

وقال فرعون الطّاغي لوزيره الباغي، رغم كلّ ما سمع من الرّجل المؤمن من قومه، يا هامان ابن لي بناءً شاهقاً بالآجرّ لعلّي بهذا الصّرح أبلغ طرق السّماوات فأطّلع إلى إله موسى وأرى هذا الّذي يزعم أنّه ربّه وأنّه في السّماء. وإني لأظنّ موسى كاذباً فيما يدّعيه بأنّ له ربّاً سواي قد أرسله.

ويلاحظ أنّ حرف الجرّ الّذي يأتي هنا هو : " إلى " وليس " على " وذلك في القول ﴿ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ لأنّ حرف الجرّ على يفيد الاستعلاء أمّا حرف الجر إلى هنا فكأنه يفيد استمرار فرعون في السّير إلى أعلى حتّى يتمكن من الاطّلاع على إله موسى حسب زعمه ورؤيته. وكأنّ حرف الجرّ " إلى " في الآية الكريمة يشي بعلم فرعون بعجزه عن الاطّلاع على إله موسى فليوهم إذن بأنّ محاولته للاطّلاع على إله موسى مستمرة باستمراره في السّير إلى أعلى. وكأن هذا العلم بالعجز عن الوصول إلى الغاية يستمدّ جذوره ممّا جاء النّصّ عليه في القرآن الكريم بأنّ فرعون يعلم الحقّ في أعماقه ويدرك أنّ موسى عليه السّلام صادقٌ ولكنّه يجحد الحقّ الّذي استيقنه، شأنه في ذلك شأن الطغاة دائماً. جاء — مثلاً — في هذا المعنى قول الحقّ جلّ وعلا في سورة النّمل [4] ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

---

[1] تفسير الطّبري ٢٤ / ٤٣ .
[2] تفسير الطّبري ٢٤ / ٤٣ .
[3] تفسير الطّبري ٢٤ / ٤٣ .
[4] الآية ١٤.

وكما زُيّن للطّغاة البُغاة سوء عملهم زيّن الشيطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسّوء لفـــرعون الطاغية سوء عمله، وصُدَّ عن السّبيل القويم. وما كيد فرعون واحتياله لقتل موسى، وإطفاء نور الله تعالى، إلاّ في خسرانٍ مبين .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

وقال الرّجل المؤمن لقومه الّذين أضلّهم فرعون وملؤه : يا قومي اتّبعوني فآمنوا بالله تعالى وصدّقوا رسوله موسى عليه السلام أهدكم سبيل الرّشاد المفضي إلى جنّات النّعيم. يـــا قومـــي إنّما هذه الحياة الدّنيا متاعٌ زائلٌ ونعيمٌ حائل، وإنّ الدّار الآخرة هي مكان الاستقرار، إمّا في الجنّة وإمّا في النّار.

ويلاحـــظ أنّ هذا المؤمن يجيء على لسانه في كلٍ من الآيتين الكريمتين نداء قومه، دلـــيلاً عـــلى لسانه الرّطب، ومنطقه العذب، وحرصه على استمالة قومه، وعدم إثارة حفيظتهم ضدّه.

ويواصل الرّجل المؤمن حديثه. إنّ من عمل سيّئة فلا يجزيه الله تعالى إلاّ مثلها، ومن عمـــل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ بالله تعالى مصدّقٌ رسوله موسى عليه السلام فلـــه عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف فما يزيد وأولئك يدخلون الجنّة يرزقون فيها بغير حساب، وينالون فيها جزيل الثّواب .

﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾

ويستّمر الرّجل المؤمن يدعو قومه إلى الصّراط المستقيم ويلاحظ مجيء النّداء ذاته :

﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ ﴾ إنّه يعجب من قومه الذين يدعوهم إلى النجاة من عذاب الله تعالى بالإيمان به عزّ وجلّ وتوحيده واتّباع موسى عليه السلام، بينما هم يدعونه إلى عمل أهل النّار. إنّهم يدعونه إلى أن يكفر بالله تعالى فلا يوحّده، وأن يشرك به في العبادة ما ليس له به علمٌ من وحي ولا عقل، بينما هو يدعوهم إلى الله تعالى العزيز في ملكه، الغفّار لمن تاب وأناب. حقاً إنّ ما تدعونني إلى عبادته ليس له قدرةٌ على أن يجيب من دعاه ولا على أن ينفعه أو يضّره، في الدّنيا ولا في الآخرة، وأنّ مرجع الجميع يوم القيامة إلى الله تعالى للحساب والجزاء، وأنّ المسرفين على أنفسهم بالشّرك هم أصحاب النّار، لأنّهم ارتكبوا الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى.

وتجاه إصرار القوم على تجاهل دعوته وعلى الشرك يحذرهم من المصير السّيّئ والعواقب الوخيمة. إنّكم سوف تذكرون بعد فوات الأوان بدخول النّار ما أقول لكم الآن. وأفوّض أمري إلى الله تعالى البصير بالعباد العليم بمن يستحقّ دخول الجنّة والخلود فيها، أو دخول النّار والخلود فيها.

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

وحاق بآل فرعون سوء العذاب : وحلّ بآل فرعون ووجب عليهم. وعنى بآل فرعون في هذا الموضع تبّاعه وأهل طاعته من قومه[1].

فوقى الله سبحانة وتعالى مؤمن آل فرعون سيّئات ما مكروا، وأذى فرعون وانتقامه من كلّ من خالفه في الرّأي، بالعذاب الشّديد وبالقتل. وكما نجى الله تعالى هذا المؤمن من عذاب فرعون وملئه في الدّنيا نجّاه من عذاب النّار في الآخرة. وحلّ بفرعون وآله سوء العذاب في الدّنيا والآخرة. في الدّنيا بالغرق، وفي الآخرة بدخول النّار.

إنّ فرعون وآله تُعْرَض أرواحهم على النّار غدوّاً وعشيّا، صباحاً ومساءً. ويوم القيامة تلحق الأرواح بالأجساد ويقال لملائكة العذاب : أدخلوا فرعون وآله أشدّ ألوان العذاب.

وهذه الآية أصلٌ كبيرٌ في استدلال أهل السّنّة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ [2] وقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنّ يهوديّة دخلت عليها فقالت : أعاذك الله من عذاب القبر. فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال : نعم ، عذاب القبر حقّ . قالت عائشة : فما رأيت رسول الله ﷺ بَعْدُ صلّى صلاةً إلاّ تعوّذ من عذاب القبر.[3]

---

[1] تفسير الطّبري ٢٤ / ٤٦ .

[2] تفسير ابن كثير ٧ / ١٣٦ وانظر فتح الباري ٣ / ٢٣٦ .

[3] تفسير ابن كثير ٧ / ١٣٧ ، وانظر فتح الباري ٣٧ / ٢٣٢ حديث رقم ١٣٧٢ .

(٤)

" مصير المتكبّرين المعرضين عن آيات الله تعالى نار الجحيم، ومصير المؤمنين المتّقين جنّات النّعيم "

الآيات (٤٧ - ٨٥) .

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

وإذ يتحاجّون في النّار : يقول تعالى ذكره لنبيّه محمّدٍ [1] : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ وإذا يتحاجون في النّار، أي وإذ يتخاصمون في النار[2] .

إنّا كنّا لكم تبعا : جمعٌ واحده تابع[3] .

يوماً من العذاب : قدر يومٍ واحدٍ من أيّام الدّنيا من العذاب الّذي نحن فيه[4] .

وأنذر يا محمّد قومك يوم القيامة الوشيك الوقوع إذ القلوب لدى الحناجر وإذا يتخاصم أهل النّار فيقول الضعفاء التّابعون للمستكبرين المتبوعين إنّا كنّا لكم في الدّنيا تابعين وأذناباً تقودوننا حيث شئتم حتّى أوردتمونا النّار، فهل أنتم حاملون عنّا قسطاً من

---

[1] سورة غافر ١٨ .

[2] تفسير الطّبري ٢٤ / ٤٧ .

[3] انظر تفسير الطّبري ٢٤ / ٤٨ .

[4] انظر تفسير الطّبري ٢٤ / ٤٨ .

الـــنّار، وحظّاً من العذاب؟ قال الذين استكبروا ردّاً على التّابعين إنّا جميعاً في النّار، وقد نال كلّ منّا نصيبه من العقاب، فلدينا ما يكفينا من العذاب. إن الله تعالى قد حكم بين العباد فأدخل فريقاً الجنّة وبيّن له درجته، وأدخل فريقاً النّار وعيّن له دَرَكَتَه .

وقـــال الّذيـــن في النّار لخزنة جهنّم وبوابيها ادعوا لنا ربّكم يخفّف عنّا مقدار يوم واحـــدٍ من أيام الدّنيا، فإنّا قد دعونا فلم يُستَجَبْ لنا. قال الخزنة : أتركتم رسلكم و لم تـــك تأتيكم [1] بالآيات البيّنات الدّالاّت على أنّهم رسل الله تعالى؟ قالوا بلى لقد أتونا بالآيات البيّنات ولكن غلبت علينا شقْوتنا. قال الخزنة إنّا لا نشفع للكافرين فادعوا أنتم ربّكـــم عزّ وجلّ يخفّف عنكم جزءاً من العذاب. لقد دعا الكافرون ربّهم جلّ وعلا أن يخفّـــف عنهم عذاب يومٍ واحدٍ من أيّام الدّنيا فلم يستجب الحقّ جلّ وعلا لهم وذهب دعاؤهم أدراج الرّياح .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾

ويـــوم يقـــوم الأشهاد : من الملائكة والأنبياء والمؤمنين على الأمم المكذّبة رسلها بالشّهادة بأنّ الرّسل قد بلغهم رسالات ربّهم وأنّ الأمم كذّبتهم. والأشهاد جمع شهيد كما الأشراف جمع شريف[2] وذلك يكون يوم القيامة[3] .

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١ / ٢١٢ .

[2] تفسير الطّبري ٢٤ / ٤٩ .

[3] تفسير الطّبري ٢٤ / ٤٩ .

ولهم سوء الدّار : ولهم مع اللّعنة من الله شرّ ما في الدّار الآخرة وهو العذاب الأليم[1] .

إنّا لننصر رسلنا والّذين آمنوا في الحياة الدّنيا على أعدائنا وفي يوم القيامة يوم يقوم الأشهاد من الملائكة والنّبيّين والمؤمنين الّذين يشهدون بأنّ رسل الله تعالى قد بلّغوا الرّسالة وأدّوا الأمانة. يوم القيامة لا ينفع المشركين معذرتهم، ولهم اللّعنة والطّرد من رحمة الله تعالى، ولهم سوء العذاب في الدّار الآخرة في نار جهنّم.

ويكون النّصر من الله تعالى للرّسل وللّذين آمنوا في أثناء حياتهم أو بعد مماتهم. إنّ النّصر بإذن الله تعالى في النّهاية للمرسلين، وإنّ العاقبة للمتّقين . جاء في سورة الزّخرف[2] قول الحقّ جلّ وعلا خطاباً للمصطفى : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾

بالعشيّ : من زوال الشمس إلى اللّيل[3] أي في أواخر النّهار وأوائل اللّيل[4].

---

[1] تفسير الطّبري ٢٤ / ٤٩ .
[2] الآية ٤١ و ٤٢ .
[3] تفسير الطّبري ٢٤ / ٥٠ .
[4] تفسير ابن كثير ٧ / ١٤١.